الفصل الثامن:
[فتح مكة]

فتح مكة:

التزمت قريش بشروط صلح الحديبية حوالي السنة ونصف السنة، ثم وقعت في خطأ كبير حين أعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حلفاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين، وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات قديمة، سكنت بعد صلح الحديبية؛ ودخلت خزاعة في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخلت بنو بكر في عهد قريش، فلما كانت مؤتة خُيِّل لقريش وحلفائها أن المسلمين قد قضي عليهم، ظن بنو بكر أن الفرصة سانحة ليصيبوا ثأرهم من خزاعة، وحرضهم على ذلك رجال من شباب قريش لم يقدروا الموقف تقديرًا صحيحًا، وقد أعانت قريش بكرا بالخيل والسلاح والرجال [1]؛ وقالوا: «ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد»، فعلوا ذلك للضغن على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [2]. وبيتت بنو بكر خزاعة ذات ليلة وهم على ماء لهم يسمى الوتير، فقتلوا منهم، وهزموهم حتى ألجؤوهم إلى الحرم، وإلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي بمكة [3]، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها [4]، ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهزة للقتال، لتمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يانوفل! إنا قد دخلنا الحرم إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم، يابني بكر أصيبوا ثأركم [5]، وعندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

---

(١) أوضح موسى بن عقبة أن من بين أشراف قريش الذين أعانوا بكرا على خزاعة: صفوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، وأن الإعانة كانت بالسلاح والرقيق. ابن كثير - البداية والنهاية ٤/ ٣١٣، من رواية موسى دون إسناد، وانظر ابن حجر - فتح الباري ٨/ ٦.

(٢) ابن هشام، السيرة ٢/ ٣٨٩، الواقدي مغازي ٢/ ٧٨٤.

(٣) ابن هشام، ٤/ ٥٥٤، ابن كثير، البداية، ٤/ ٢٧٨.

(٤) انظر، الواقدي (٢/ ٧٨١ - ٧٨٤).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٥٤).

يـــارب إني ناشـــد محمـــداً ::: حلـــف أبيـــنا وأبـــيه الأتلـــدا
هـــم بيـــتونا بالـــوتير هجّـــدا ::: تُمِـــت أسـلمنا فلـــم ننـــزع يدا[1]
وزعمـــوا أن لـــست أدعـــوا أحـــد ::: وادع عـــباد الله يأتـــوا مـــدداً
ونقـــضوا ميـــثاقك المـــؤكدا ::: إن ســـيم خـــسفا وجهـــه تـــربدا
في فـــيلق كالبحـــر يجـــري مُـــزبدا ::: إن قريـــشاً وأخلفـــوك المـــوعدا
فـــيهم رســـول الله قـــد تجـــردا ::: وجعلـــوا لي في (كَـــدَاءِ) رُصَّـــدا
فانـــصر هـــداك الله نـــصراً أعـــتدا ::: وهـــم أذل وأقـــل عـــددا
قـــد كنـــتم وُلـــدا، وكـــنا والـــداً ::: وقـــتلونا ركّعـــا وســـجدا

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نُصرتَ ياعمرو بن سالم**[2]**! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب**» . ولما عرض السحاب من السماء قال: «**إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب**»[3] .

وجاء في رواية: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن سمع وتأكد من الخبر أرسل إلى قريش فقال لهم: «**أما بعد فإنكم إن تبرؤوا من حلف بني بكر، أُتُدوا خزاعة**[4]**، وإلا أوذنكم بحرب**» فقال قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية: إن بني بكر قوم مشائيم ، فلا ندى ماقتلوا لنا سَبَد ، ولا لَبَد[5] ، ولا نبرأ من حلفهم فلم يبق على ديننا أحد غيرهم ، ولكن نؤذنه بحرب[6] ، وفي هذا دليل على أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفاجئ قريشاً بالحرب وإنما خيرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب[7] .

وليس هناك من شك في أن انتصار قريش لحلفائها ودعمها لهم على حلفاء المسلمين ، هو نقض صريح لبنود صلح الحديبية أدركت قريش أخطاره ، وندمت على فعلها له ، ولذلك فإنها بادرت إلى إرسال أبي سفيان إلى المدينة لتمكين الصلح وإطالة أمده ولعل المدة كانت سنتين ، فكانوا يريدونها عشرًا ، ولقي أبو سفيان بديل بن ورقاء في الطريق ، وبالرغم من أن بديلًا أنكر أنه لقي محمدًا ؛ فإن

(١) يريد أن أم عبد مناف وأم قصير خزاعيتان .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٤) .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٤) ؛ البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨) .
(٤) أي تدافعوا دية قتلاهم .
(٥) السَّبد الشعر واللَّبد الصوف ، يعني إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء .
(٦) انظر: الواقدي (٢/ ٧٨١ - ٧٨٤) .
(٧) التاريخ الإسلامي (٧/ ١٦٤) .

أبا سفيان عرف أنه كان بالمدينة، ومن أجل ذلك آثر ألا يكون محمد أول من يلقى، فجعل وجهته بيت ابنته أم حبيبة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولم تستقبله ابنته استقبالًا حسنًا، ولما لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكلمه في العقد وإطالة مدته لم يرد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه، ورفض كبار الصحابة من المهاجرين: أبو بكر وعمر وعلي أن يساعدوه، بل لقد أغلظ له عمر الجواب وقال: "أنا أشفع لكم إلى رسول الله!! فو الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به".

فانصرف محنقًا يفيض أسى مما لقي من هوان، وعاد إلى مكة يحمل لقومه نتيجة سفارته الفاشلة، وقد أدرك أن الموقف تحول نهائيًا إلى غير صالح مكة، وأخذ رجال مكة يتناقشون في موقف أصبح ميئوسًا منه[1].

ومما يذكر عند نزوله في المدينة دخل على ابنته أم حبيبة - أم المؤمنين - وأراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه؛ فقال: يابنية! ماأدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر[2].

وهذا الموقف لا يستغرب من أم حبيبة، فهي ممن هاجر الهجرتين وقد قطعت صِلاتها بالجاهلية منذ أمد بعيد، إنها لم تر أباها منذ ستة عشر سنة، فلما رأته لم تر فيه الوالد الذي ينبغي أن يُقدر ويُحترم، وإنما رأت فيه رأس الكفر الذي وقف في وجه الإسلام وحارب رسوله تلك السنوات الطويلة[3]، وهذا ماكان يتصف به الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين، وفي مخاطبة أم حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب دليل على قوة إيمانها ورسوخ يقينها، لقد كان في سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ في إظهار أمر له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنويته إلى النماء والحيوية[4].

ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ير أن يترك لهم فرصة حتى يتجهزوا للقائه؛ لذلك أمر فنادى بالتجهز فاحتشد له جيش قوي لم تشهد الجزيرة مثله من قبل عدة ونظامًا، فلقد بلغت عدته أكثر من عشرة آلاف، وبلغت قوة الفرسان فيه أكثر من

---

(١) ابن هشام، ٣/ ١٢ - ١٤. ابن كثير، ٤/ ٢٨٠، ٢٨١.
(٢) ابن كثير، ٤/ ٢٨٠، ٢٨١.
(٣) معين السيرة، ص٣٩٥.
(٤) التاريخ الإسلامي (٧/ ١٧٠، ١٧١).

ألفين ، وإذا كان جيش الأحزاب في موقعة الخندق قد بلغ مثل هذا العدد أو نحوه فإنه كان مفكك القيادة متنازع الأهواء ، أما هذا الجيش فكان تحت قيادة موحدة حازمة ، وكان هدفه واضحًا محددًا ، ولم تكن القبائل التي اشتركت فيه مدفوعة بالكسب المادي مأجورة كما كانت حال غطفان في يوم الخندق . ولما اكتملت عدة الجيش أعلن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف عن سيرهم على نبأ وسأل ربه قائلا: «**اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها في بلادها**» [1] .

وهذا شأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أموره يأخذ بكافة الأسباب البشرية ، ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد .

وتحرك الجيش الكبير في عدته التي لم تشهدها الجزيرة من قبل عدة وسلاحًا ونظامًا وحسن طاعة ، يملأ نفوس رجاله الإيمان بأن لا غالب لهم من دون الله ، وسار محمد على رأس هذا الجيش وكل تفكيره أن يدخل البلد الحرام من غير أن يريق قطرة دم واحدة[2]

إن حركة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بناء الدولة وتربية المجتمع وإرسال السرايا ، وخروجه في الغزوات تعلمنا كيفية التعامل مع سنّة الأخذ بالأسباب سواءً كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية ، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السنّة واضحة في هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فعندما قرر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السير لفتح مكة ، حرص على كتمان هذا الأمر حتى لايصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفة وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة .

فقد أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمبدأ السرية المطلقة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقرب أصحابه إلى نفسه ، وزوجته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أحب نسائه إليه ، فلم يعرف أحد شيئاً عن أهدافه الحقيقية ولا باتجاه حركته ولا بالعدو الذي ينوي قتاله بدليل أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما سأل ابنته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن مقصد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت له: ماسمَّى لنا شيئاً وكانت أحياناً تصمت . وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئاً عن مقاصده

(١) ابن كثير – البداية ٤/ ٢٨٣ ، ابن هشام ، السيرة ٢/ ٣٨٩ بإسناد حسن من حديث الزهري عن عروة عن المسور .
(٢) ابن هشام ، ٤/ ١٤ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] .

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم لأنهن ربما يذعن شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نية فتتنقلها الألسن حتى تصير سبباً في حدوث كارثة عظيمة[2] .

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث قبل مسيرة مكة سَرِيَة مكونة من ثمانية رجال وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية ، وفي ذلك يقول ابن سعد: لما همّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سَرِيَة إلى بطن إضَم ، ليظن ظان أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بتلك الأخبار . . . فمضوا ولم يلقوا جمعاً ، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشُب ، فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة ، فأخذوا على (بيبن) حتى لقوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسُّقيا[3] .

وهذا منهج نبوي حكيم في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك مايمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام التي من شأنها صرف أنظار النساء عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتسلم من كيد أعدائها[4] .

وقد بث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش: (وأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأنقاب[5] ، فكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطوف على الأنقاب قيماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه . . . إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة[6] .

إن جمع المعلومات سلاح ذو حدين وقد استفاد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حدِّه النافع لصالح المسلمين وأبطل مفعول الحد الآخر باتباعه السرية واتخاذها أساساً لتحركاته واستعدادته ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التي تفيده

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢) ؛ شيت خطاب ، الرسول القائد ، ص٣٣٣ ، ٣٣٤ .
(٢) القيادة العسكرية في عهد الرسول ، ص٣٩٥ ، ٣٩٦ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٣٢) .
(٤) القيادة العسكرية ، ص٤٩٨ .
(٥) الأنقاب: جمع نقب ، وهو كالعريف على القوم .
(٦) التحفظ: هو الاحتراز والتيقظ ، مغازي الواقدي (٢/ ٧٩٦) .

في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوة المناسبة[1].

وعندما أكمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه المحاولة وهي في مهدها، عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا والزّبير والمقداد، قال: «**انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها**» فذهبنا تعادى[2] بنا خيلنا حتّى أتينا الرّوضة فإذا نحن بالظّعينة. فقلنا: أخرجي الكتاب فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لتلقينّ الثّياب. فأخرجته من عقاصها[3]، فأتينا به النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممّن بمكة يخبرهم ببعض أمر النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما هذا يا حاطب؟**» قال: لا تعجل عليّ يا رسول الله، إنّي كنت امرأ من قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكّة، فأحببت إذ فاتني من النّسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني. فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّه قد صدقكم**» فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه. فقال: «**إنّه شهد بدرا، وما يدريك لعلّ الله - عزّ وجلّ - اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» ونزلت فيه: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ [الممتحنة: ١][4].

على الرغم من كل ماذاق المهاجرون من العنت والأذى من قريش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم، وتقطع مابينهم

(١) القيادة العسكرية، ص٣٦٥.
(٢) تعادى: أصلها تتعادى أي تتسابق.
(٣) عقاصها: ضفائر شعرها جمع عقصة بمعنى ضفيرة.
(٤) البخاري، الفتح ٨ (٤٨٩٠) واللفظ له. مسلم (٢٤٩٤).

وبينهم من صلات ، وكأن الله يريد استقصاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه . . . فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ ، بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث ، ليكون العلاج على مسرح الأحداث وليكون الطرق والحديد ساخن[1] .

إن ماقام به حاطب أمر عظيم ولذلك نزل القرآن الكريم ، يوجه المجتمع المسلم نحو مايجب عليهم فعله نحو أعداء دينهم ، كما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامل حاطب معاملة رحيمة تدل على حرصه الشديد على الوفاء لأصحابه وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة منهم ، لقد جعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ماضي حاطب المجيد سبباً في العفو عنه ، وهذا منهج نبوي حكيم ، فلم ينظر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب وإن كانت كبيرة ، وإنما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى وإعزاز دينه ، فوجد أنه قد شهد بدراً ، وفي هذا توجيه للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرة متكاملة ، وذلك بأن ينظروا فيما قدموه لأمتهم من أعمال صالحة في مجال الدعوة ، والجهاد ، والعلم ، والتربية[2] .

بدأت قوات الفتح مسيرتها المظفرة من المدينة في العاشر من رمضان سنة ثمان من الهجرة[3] ، بعد أن استخلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري[4] ، وكانوا صياما فواصلوا الصوم حتى بلغوا كديدا فأفطر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأفطر الجيش[5] ، وقد وصل المسلمون إلى مرّ الظهران وعسكروا هناك دون أن تصل قريشا أية أخبار عن تحركهم مما يدل على نجاح المسلمين في تعمية الأخبار[6] .

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨) .

(٢) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٧٦) .

(٣) مسلم ، شرح النووي ٣/ ١٧٦ (حديث ١١٣ - ١١٤) .

(٤) ابن هشام ، السيرة ٢/ ٣٩٩ ، ابن حجر ، المطالب العالية ٤/ ٢٤٨ ، الحاكم ، المستدرك ٣/ ٤٤ ، وانفرد ابن سعد - الطبقات ٢/ ١٣٥ بأنه عبد الله بن أم كلثوم ، معلقا .

(٥) البخاري ، الصحيح ٥/ ١٨٥ ، فتح الباري ٤/ ١٨٠ - ١٨١ (حديث ٤٢٧٥) ، مسلم ، الصحيح ٢/ ٧٨٤ (حديث ١١١٣) وفي رواية ثانية عند مسلم: أن الإفطار كان بكراع الغميم (الصحيح حديث ١١١٤) والموضعان متقاربان .

(٦) صحيح مسلم ، شرح النووي ٣/ ١٧٦ وقد وردت روايات صحيحة بخروج بعض زعماء قريش يتحسسون الأخبار وإلى أنهم رأوا نيران المسلمين وتعجبوا من كثرة الجيش وأن

وفي الجحفة لقيه العباس بن عبدالمطلب عمه وقد خرج مهاجراً بعياله، فسُرَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان العباس قد أسلم قبيل غزوة خيبر [1].

وفي خروج العباس بأهله وأولاده من مكة وكان بها بمثابة المراسل العسكري أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أن مهمته فيها قد انتهت، وخاصة، إذا لاحظنا أن بقاءه في مكة كان بأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [2].

وفي الطريق إلى مكة، قدم بعض زعماء قريش إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعلنوا إسلامهم، منهم ابن عم أبيه وأخوه من الرضاعة أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبدالله بن أمية بن المغيرة [3] فلقيا رسول الله بثينة العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت: يارسول الله ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك، فقال: لاحاجة لي فيهما أما ابن عمي، فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ماقال؛ فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له فقال: والله ليأذنن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً، فلما بلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رق لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لعمرك إني يوم أحمل رايةً ::: لتغلب خيل اللات خيل محمد

أحدهم قد ظن أنهم خزاعة، ابن حجر، المطالب ٤/ ٢٤٤ - ٢٤٨.

(١) أحمد، المسند، الفتح ٢١/ ١٢٢، الصنعاني، المصنف ٥/ ٤٦٦، وأخرجه النسائي، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٢١٧. وقد وردت روايات ضعيفة تبين إسلامه قبل غزوة بدر الكبرى، ابن سعد، الطبقات ٤/ ١٠ - ١١، بل إن إحدى الروايات جعلت إسلامه قبل الهجرة إلى المدينة، ابن سعد - الطبقات ٢/ ٣١ بإسناد منقطع وفيه الواقدي، ومع التأكيد على ما قدمه الصحابي الجليل العباس بن عبد المطلب عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خدمات جليلة للإسلام قبل إسلامه وبعد ذلك حيث كان عينا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قريش وملاذا للمستضعفين من المسلمين في مكة قبل أن يسلم، فإن أسره في معركة بدر مع المشركين ومطالبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إياه بأن يفتدي نفسه من الأسر تقطع بعدم دخوله الإسلام حتى ذلك الوقت. ويترجح أنه كتم إسلامه في الفترة التي أعقبت غزوة خيبر لمقتضيات مصلحة المسلمين.

(٢) محمد السيد الوكيل، تأملات في السيرة النبوية، ص٢٥٤.

(٣) الحاكم، المستدرك ٣/ ٤٣ - ٤٥، ابن هشام، السيرة ٢/ ٤٠٠، الطبري، تاريخ ٣/ ٥٠، البيهقي، دلائل النبوة ٥/ ٢٧ - ٨، الهيثمي، مجمع الزوائد ٦/ ١٦٤ - ١٦٧، ونقل مسلم في صحيحه ٢/ ٣٩٥.

لكالمدلج الحيارن أظلم ليله ::: فهذا أوان الحق أهدي وأهتدي
وإن الذي أخرجتم وشتمتم ::: وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي
قبائل جاءت من بلاد بعيدة ::: إلى الله من طردت كل مطرد
فما كنت في الجيش الذي نال عامراً ::: وأدعى وإن لمن أنتسب لمحمد
أريد لأرضيهم ولست بلا قط ::: وإن كان ذا رأي يلم ويفند
هم عصبة من لم يقل بهواهم ::: مع القوم مالم أهد في كل مقعد
أفر سريعاً جاهداً عن محمد ::: ولا كلّ عن غير لساني ولا يدي
هداني هاد غير نفسي ودلني ::: توابع جاءت من سهام وسردد
فقل لثقيف لا أريد قتالكم ::: سيسعى لكم امرىء غير مقدد

قال فلما أنشد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الله من طردت كل مطرد، ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدره، فقال: «أنت طردتني كل مطرد»[1].

وكان أبو سفيان بن الحارث يهجوا بشعره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيراً، وأما عبدالله ابن أمية فقد قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فوالله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ماظننت أني أصدقك[2].

ومع فداحة جرمهما فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عفا عنهما وقبل غدرهما، وهذا مثال عال في الرحمة والعفو والتسامح ولقد كفّر ابوسفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيان اهتدائه به، ولقد حسن إسلامه وكان له موقف مشرف في الجهاد مع رسول الله في معركة حنين[3].

إسلام أبو سفيان:

وتابع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيره حتى أتى مر الظهران[4]، فنزل فيه

(١) الحاكم، المستدرك ٣/ ٤٣ - ٤٥، ابن هشام، السيرة ٢/ ٤٠٠، الطبري، تاريخ ٣/ ٥٠، البيهقي، دلائل النبوة ٥/ ٢٧ - ٨، الهيثمي، مجمع الزوائد ٦/ ١٦٤ - ١٦٧، ونقل مسلم في صحيحه ٢/ ٣٩٥.
(٢) ابن هشام، (١/ ٢٩٥ - ٣٠٠).
(٣) التاريخ الإسلامي (٧/ ١٨٢).
(٤) مر الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ ٢٢ كلم.

عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب[1].

قال العباس: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، وركب بغلة رسول الله وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال أبو سفيان: مارأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها[2] الحرب، فقال: أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها... وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة، فقال أبو الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك، فداك أبي وأمي، قال العباس قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس واصباح قريش والله، قال فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذ البغلة حتى أتي بك رسول الله فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، كما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمدلله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودخل عليه عمر فقال: يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال قلت: يارسول الله إني قد أجرته... فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً ياعمر، فوالله أن لو كان من بني عدي ماقلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً ياعباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم. ومابي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذهب به ياعباس إلى رحلك فإذا أصبحت فاتني به فلما أصبح غدوت به**» فلما رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن**

(١) معين السيرة، ص٣٨٧؛ الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).

(٢) حمشتها الحرب: احرقتها.

لـك أن تعلـم أنـه لا إلـه إلا الله؟» قـال: بأبـي أنـت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصـلك، والله لقـد ظننت أن لـو كـان مـع الله إلـه غيره لقد أغنى عني بعد، قـال: «ويحـك يـا أبـا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شـيئاً. فقـال لـه العباس: ويحك أسلم قبل أن نضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحـق فأسـلم قـال العـباس: قلـت يارسـول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فأجعـل لـه شـيئاً، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهـو آمـن، ومـن دخـل المسجد فهـو آمـن فلمـا ذهب لينصرف قال رسول الله ياعباس: «احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها». قـال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومرت القبائل علـى راياتها، كلما مرت قبيلة قال ياعباس من هذا؟ فأقول: سُليم؟ فيقول: مالي ولـسُليم، ثـم تمر به القبيلة، فيقول: ياعباس من هؤلاء؟ فأقول مزينة فيقول مالي ولمـزينة... حتـى مـر بـه رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتيبـته الخـضراء، فـيها المهاجـرون والأنـصار، لا يـرى مـنهم إلا الحـدق مـن الحديـد، قال سبحان الله ياعـباس، مـن هـؤلاء؟ قـال: قلـت: هـذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المهاجرين والأنـصار، قـال: مالأحـد بهؤلاء قبلٍ ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصـبح ملـك ابـن أخـيك اليوم عظيماً قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذن، قال: قلت: النجاء إلى قومك[1].

إنهـا النـبوة تلـك هي الكلمة التي أدارتها الحكمة الإلهية على لسان العباس، حتى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنمـا كانـت ابـتغاء ملـك أو زعامة، أو إحياء قومية أو عصبية وهي كلمة جاءت عنواناً لحياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أولها إلى آخرها، فقد كانت سـاعات عمـره ومـراحلها كلـها دلـيلاً ناطقـاً علـى أنه بعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه في الأرض[2].

لقد تعمد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شن الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكـة حيث أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإيقاد النيران فأوقدوا عشرة آلاف نار في لـيلة واحـدة حتى ملأت الأفق فكان لمعسكرهم منظر مهيب كادت تنخلع قلوب

(١) صحيح السيرة النبوية، ص٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠.
(٢) فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٧٥.

القريشيين من شدة هوله[١] .

وقد قصد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك تحطيم نفسيات أعدائه والقضاء على معنوياتهم حتى لايفكروا في أية مقاومة ، وإجبارهم على الاستسلام لكي يتم له تحقيق هدفه دون إراقة دماء ، وبتطبيق هذا الأسلوب تم له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماأراد ولقد كان اهتمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعنويات المقاتل ونفسيته سبقاً عسكرياً بدليل أن المدارس العسكرية التي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية والاهتمام من الناحية العسكرية[٢] .

علي أبواب مكة:

ولما اقترب الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة توقف عند ذي طوى[٣] وزع المهام ، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى ، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى ، وجعل أبا عبيدة على البياذقة[٤] ، وبطن الوادي ، فقال: يا أبا هريرة ادع لي الأنصار فدعاهم فجاؤوا يهرولون ، فقال: «**يامعشر الأنصار، هل ترون أوباش[٥] قريش قالوا: نعم. قال: انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً وأخض بيده ووضع يمينه على شماله وقال موعدكم الصفا**»[٦] .

وبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء[٧] من أعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتى يأتيه ، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت ، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأمرهم أن يكفوا أيدهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم وبهذا كانت المسؤوليات واضحة ، وكل قد عرف ماأسند

---

(١) الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥) .

(٢) العبقرية العسكرية وغزوات الرسول ، اللواء محمد فرج ، ص٥٦٥ .

(٣) ذي طوى واد من أودية مكة ، كله معمور اليوم ، يسيل في سفوح جبل أذاخر والحجون من الغرب ، وتفضي إليه كل من ثنية الحجون - كداء قديما - وثنية ريع الرسام - كدى - قديما . ويذهب حتى يصب في المسفلة عند قوز المكاسة - الرمضة قديما - من الجهة المقابلة .

(٤) البياذقة: هم الرجالة (وهو فارسي معرب) .

(٥) أوباش: جموع من شتى البطون .

(٦) مسلم ، الصحيح ٣/ ١٤٠٥ (حديث ١٧٨٠) .

(٧) البخاري ، الصحيح ٥/ ١٨٩ (حديث ٤٢٩٠ - ٤٢٩١) .

إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه[1].

ولم يرتدع المشركون المعاندون ورءوس الكفر من قريش عن غيهم حتى بعد أن أحدقت بهم قوات المسلمين، فقد عولوا على تجميع قوات من قبائل شتى من حلفائهم لكي يدفعوهم لحرب المسلمين بقصد منعهم من دخول مكة، وكانوا مهيّئين للالتحاق بتلك القوات إذا حققت ما يؤملون، أما في حالة الفشل فإنهم يعطون ما طلب أبو سفيان منهم من الصلح. وقاد جموع أحلاف قريش التي تجمعت في الخندمة[2] صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو[3].

ولما مر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبي سفيان ومضي قال له العباس: النجاء إلى قومك. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحَمِيت الدسم الأحمش الساقين، قُبِّحَ من طَلِيعَة قوم.

قال أبو سفيان: ويلكم، لاتغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟[4].

وقد حدثتنا كتب السيرة والتاريخ عن قصة حماس بن خالد من قبيلة بني بكر، فقد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله: لماذا تعدُّ ماأرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، وقالت امرأته له يوماً: والله ماأرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء! فقال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم... ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالي عِلة ::: هذا سلاح كامل وألّة[5]

وذو غرارين سريع السلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئاً من قتال مع رجال عكرمة ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد، فخرج منهزماً حتى بلغ

(١) البخاري، الصحيح (فتح الباري ٨/ ١٠).
(٢) أحد جبال مكة.
(٣) ابن هشام، السيرة ٢/ ٤٠٧.
(٤) ابن هشام، السيرة، ٢/ ٤٠٥.
(٥) ألة: حربة.

بيته فقال لامرأته: أغلقي عليّ الباب . . .

فقالت المرأة لفارسها المعلَم: فأين ماكنت تقول؟

فقال: يعتذر لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ::: إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
لهم نهيت[٢] خلفنا وهمهمة ::: واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ::: ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة[٣] ::: لم تنطقي باللوم أدنى كلمة[١]

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربعة في آن واحد ولم تلق تلك القوات مقاومة وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربعة ضربة قاضية لفلول المشركين حيث عجزت عن التجمع وضاعت منها فرصة المقاومة ، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أصبح في مركز القوة في العدد والعتاد ، ونجحت خطة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلم يستطع المشركون المقاومة ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى ، فاحتل كل فيلق منطقته التي وجه إليها ، في سلم واستسلام ؛ إلا ماكان من المنطقة التي توجه إليها خالد ، فقد تجمع متطرفو قريش ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو وغيرهم ، مع بعض حلفائهم عند الخندمة وكانت مقاومة المشركين يسيرة ، وكانت أعنف المواجهات قد حصلت عند جبل الخندمة حين التحمت قوات خالد بالمشركين فاستشهد اثنان من فرسان المسلمين على أصح الروايات [٤] ، في حين قتل من المشركين اثنا عشر رجلا [٥] ، وكان هذا

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٩٥) .

(٢) النهيت: صوت الصدر .

(٣) المؤتمة: الاسطوانة ، وأبوزيد: سهيل بن عمرو .

(٤) البخاري ، الصحيح (فتح الباري حديث ٤٢٨٠) ، وفي رواية ابن إسحاق ثلاثة (ابن هشام ، السيرة ٢/ ٤٠٧) ، والعمدة على ما أورده البخاري فقد نص على اثنين من الشهداء بين المسلمين .

(٥) ابن هشام ، السيرة ٢/ ٤٠٧ ، الحاكم المستدرك ٣/ ٢٤١ ، ونقل البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٢٠) من مراسيل موسى بن عقبة أنهم قريب من عشرين رجلا بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة من هذيل وذكر الواقدي أنهم أربعة وعشرون من قريش وأربعة من هذيل المغازي ٢/ ٨٢٧ - ٨٢٩ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ١٢٦ ، وجعلهم الطبراني سبعين رجلا وهو ما نقل عنه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ، ٤/ ٣٣١ .

القتال الذي جرى في مكة بسبب عدم احترام المقاومين للأمان الذي أعلنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل مكة، وقد توجع أبو سفيان بسبب كثرة القتلى وخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلا: «يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم[1] لقد أعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول لكي يتمكنوا من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء وكان الشعار المرفوع من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، وجعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء ويستخدمه كمفتاح أمان يفتتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء ويشبع في نفسه عاطفة الفخر التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان في قلبه[2].

دخول خاشع متواضع، لا دخول فاتح متعال:

دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام[3]، وهو واضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ماأكرمه الله به من الفتح، حتى أن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح[4]، مستشعراً بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز[5]، وعندما دخل مكة فاتحاً - وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي - رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد[6]، وهو ابن مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة[7].

قال ابن كثير: "وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة في مثل هذا الجيش العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس وهم سجود - أي ركع - يقولون حطة فدخلوا

(١) مسلم، الصحيح ٢/ ٩٥ - ٩٦.
(٢) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص٢٤٥.
(٣) مسلم رقم ١٣٥٨.
(٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٨) رقم ٤٢٨١.
(٥) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٣٩٦.
(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٢٨٩.
(٧) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ص٣٣٧.

يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة) [1].

يقول محمد الغزالي في وصف دخول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمكة: على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ... إن الموكب الفخم المهيب الذي ينسب به حثيثاً إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول كيف خرج مطارداً؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً وأي كرامة عظمى حفّه الله بها هذا الصباح الميمون، وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعاً وانحناءً..) [2].

وحين مرت كتيبة الأنصار بأبي سفيان عند المضيق بمر الظهران، قال سعد بن عبادة حامل رايتهم: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة» [3] فتأثر أبو سفيان من ذلك واشتكى إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مقالة سعد، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذب** [4] **سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة**» [5]، وأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راية الأنصار من سعد بن عبادة ودفعها إلى ابنه قيس، ولكن سعدا كلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك ملتمسا أن يصرف ابنه عن الموضع الذي هو فيه، مخافة أن يقع في خطأ، فأخذها منه [6].

وبهذا التصرف الحكيم من الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنىً عنها، وفي نفس الوقت لم يُث سعد بن عباده، ولا أثار الأنصار، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لأبنه، ومن طبيعة البشر أن لايرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه [7].

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٩٥).

(٢) فقه السيرة للغزالي، ص٣٧٩، ٣٨٠.

(٣) البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٦ (حديث ٤٢٨٠).

(٤) كانت تستعمل بمعنى أخطأ.

(٥) البخاري، الصحيح (فتح الباري حديث ٤٢٨٠).

(٦) ابن حجر، مختصر زوائد البزار، ص/ ٢٤٨، فتح الباري - شرح حديث (٤٢٨٠)، ابن حجر، المطالب العالية ٤/ ٢٤١، الهيثمي، مجمع الزوائد ٦/ ١٦٩، ابن كثير، البداية والنهاية ٤/ ٣٢٣ - ٣٢٨.

(٧) انظر: قيادة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السياسية والعسكرية، ص١٩٦.

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام:

وركِزت راية رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالحجون عند مسجد الفتح، ثم نهض والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد. فأقبل إلى الحجَر فاستمله، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه، ثلاثمائة وستّون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. والأصنام تتساقط على وجوهها[١].

إنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله، إذ كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطعن تلك الآلهة الزائفة المنثورة حول الكعبة بعصا معه، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفئ على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذاً[٢].

وقد تم تحطيم الأصنام جميعا، وكان عددها ثلاثمائة وستين صنما[٣]. وكانت قد علقت في جدران الكعبة الداخلية صورا لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهم يستقسمون بالأزلام فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قاتلهم الله ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام**»[٤]. ووردت رواية أخرى تذكر وجود صورة مريم معلقة داخل الكعبة[٥] فغطيت جميع الصور بالزعفران وتم إزالتها من جوف الكعبة قبل أن يدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها[٦]، ووجد فيها حمامة من عيدان فكسّرها ورمى بها خارج الكعبة، وعند ما طهرت الكعبة دخلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصلى بها[٧].

وحين خرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكعبة دعا عثمان ابن طلحة فأعطاه مفتاح

---

(١) مسلم - الصحيح ٣/ ٢٤٠٨ (حديث ١٧٨١).

(٢) فقه السيرة للبوطي، ص٢٨٢.

(٣) البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٨، حديث ٤٢٨٧، مسلم، الصحيح ٣/ ١٤٠٨ (حديث ١٧٨١).

(٤) البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٨، أحمد، المسند ١/ ٣٦٥، وأورد البخاري رواية أخرى جاء فيها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هذا إبراهيم مصور فما له يستقسم» (حديث ٣٣٥١).

(٥) البخاري، الصحيح (حديث ٣٣٥١).

(٦) البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٨.

(٧) البخاري، الصحيح ٥/ ٢٢٢ (حديث ٤٤٠٠) وقد أورد الإمام البخاري في هذه الرواية الصحيحة تفاصيل دقيقة عن المكان الذي صلّى فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جوف الكعبة، كما أورد تفصيلات عن بناء الكعبة والأعمدة الداخلية.

الكعبة فأبقى الحجابة في أيدي بني شيبة كما كانت في الجاهلية قائلاً: اليوم يوم بر ووفاء [1] وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال ياعثمان! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت، فقال لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: بل عمرت وعزت يومئذ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً، وظن أن الأمر سيصير إلى ماقال [2]، ولقد أعطى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفاتيح الكعبة قائلاً له: هاك مفتاحك ياعثمان اليوم يوم بر ووفاء [3]، خذوها خالدة تالدة لاينزعها منكم إلا ظالم [4]، ثم استلم الحجر الأسود وطاف بالبيت من غير إحرام مهللا مكبرا شاكرا ذاكرا حامدا [5].

فلم يشأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في أحد من بني هاشم، وقد تطاول لأخذه رجال منهم، لما في ذلك من الاثارة أولاً، ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق... هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البر والوفاء حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا [6].

ثم أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلالا الحبشي أن يؤذن، فصعد إلى ظهر الكعبة وأذن عليها [7].

لقد أذن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للصلاة وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين، الله أكبر

---

(١) الصنعاني، المصنف ٥/ ٨٣ - ٨٥ الأحاديث ٩٠٧٣، ٩٠٧٤، ٩٠٧٦، وانظر ابن حجر، فتح الباري - شرح حديث (٤٢٨٩).

(٢) المغازي (٢/ ٨٣٨).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٢).

(٤) المغازي (٢/ ٨٣٨).

(٥) البخاري، الصحيح ٣/ ٢١ (حديث ٤٢٨٦)، مسلم، الصحيح ٢/ ٩٩٠ (حديث ١٣٥٨) وفيه أنه كان يلبس المغفر منذ دخل مكة، ثم نزعه عن رأسه ولبس عمامة سوداء.

(٦) صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٤٠١.

(٧) الذهبي، المغازي ص/ ٥٥٥، البيهقي، دلائل النبوة ٥/ ٧٨ بإسناد، ابن سعد - الطبقات ٣/ ٢٣٤ - ٢٣٥، الواقدي، مغازي ٢/ ٨٤٦.

الله أكبر الله أكبر[1].

ذلك الصوت الذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العذاب: أحد، أحد، أحد هاهو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إله إلا الله محمد رسول الله والكل خاشع منصت خاضع[2].

إعلان العفو العام:

لما دخل الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكعبة وكبر في نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم، وصلى فيه ركعتين، ثم شرب من زمزم، وجلس في المسجد، كان الناس حوله ينظرون، والعيون شاخصة إليه، ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه، وأخرجوه من بلاده وقاتلوه، ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم، أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[3].

وقد نزل قول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾ [النحل: ١٢٦].

لم يدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة دخول الفاتحين، بل إنه دخل خاشعا لله تعالى وهو يقرأ سورة الفتح ويرجّع في قراءتها وهو على راحلته[4]، وقد دخل المسجد الحرام وطاف بالكعبة المشرفة فاستلم الركن بمحجنه كراهة أن يزاحم الطائفين ولكي يعلّم أبناء الأمة آداب الطواف، وأعلن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرمة مكة وبأنها لا تغزى بعد الفتح[5]، ورفع من مكانة قريش وأمر بألّا يقتل قرشي صبرا بعد الفتح وإلى يوم القيامة[6].

لقد ترتب على العفو العام الذي أصدره الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حفظ الأنفس من القتل أو السبي وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة

(١) فقه السيرة للغزالي، ص٣٨٣.
(٢) فقه السيرة للبوطي، ص٢٦٩.
(٣) القاسم بن سلام، الأموال/ ١٤٣، ابن سعد ٢/ ١٤١ - ١٤٢.
(٤) البخاري، الصحيح (فتح الباري - حديث ٤٢٨٠.
(٥) الترمذي، السنن ٣/ ٨٣، وقال عنه: إنه حسن صحيح، أحمد، المسند ٤/ ٤١٢.
(٦) مسلم - الصحيح ٢/ ٩٧ (حديث ١٧٨٢)، أحمد - المسند ٣/ ٤١٢، بإسناد صحيح.

لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى [1].

إهدار دم رجال من أكابر المجرمين:

إلى جانب ذلك الصفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الذي لابد أن تتصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، لأنه عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله، وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح [2].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جمعت أسماءهم من متفرقات الأخبار، وهم: عبدالعزى بن خطل، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد - مصغراً - ومقيس بن حبابة، وهبّار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل: فرتني وقريبة، وسارة مولاة بني عبدالمطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلال الخزاعي وذكر الحاكم أن فيمن أهدر دمه كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة [3].

ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلماً تائباً فعفا عنه الرسول، وحسن إسلامه [4].

والحقيقة أن هؤلاء الذين أهدرت دماؤهم ارتبطت أسماؤهم بقضايا معينة ومواقف تستدعي المساءلة والجزاء من أمثال عبد العزى بن خطل الذي ارتد وقتل من بعثه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه لجمع الصدقات، ثم لحق بالمشركين، وقد وجد متعلقاً بأستار الكعبة فقتل جزاء ارتداده وقتله لصاحبه وخيانته الأمانة، وكذلك قتل الحويرث بن نقيذ بيد علي بن أبي طالب لكثرة ما كان يؤذي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة، كما قتل مقيس بن صبابة بيد غميمة بن عبد الله لقتله رجلاً من الأنصار قتل أخاه عن طريق الخطأ، وهناك من أمّنهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كإحدى جاريتي ابن خطل الهاجيتين لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسارة مولاة بني المطلب ورجلين احتميا بأم هاني بنت أبي طالب قيل إنهما الحارث بن هشام وزهير بن أمية وكذلك عبد الله بن سعد بن أبي السرح وعكرمة بن أبي جهل

(١) المجتمع المدني للعمري، ص١٧٩.
(٢) السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١)؛ تأملات في السيرة، ص٢٦٢.
(٣) فتح الباري (٧/ ٩).
(٤) السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١).

وكلهم أسلموا وحسن إسلامهم. وهبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم مكة ثم أسلم وحسن إسلامه.

لقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكيماً بل سيد الحكماء، يزن الأمور بالعدل، ويضع الدواء على الجرح، ويقدِّر المصالح والعواقب؛ قال لقريش: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» ثم أهدر دم بعض المجرمين ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة. فالأمر ليس تسامحاً مطلقاً، أو عقاباً مطلقاً، وإنما الأمر هو أن لكل حادث حديث يناسبه، وإعطاء كل مسألة حقها.

إن التسامح المشروع لا يكون إلا إذا صادف محلاً مناسباً، وإن أولئك المجرمين الذين أهدرت دماؤهم ليسوا موضعاً صالحاً للتسامح، وإن التسامح مع أولئك المجرمين قد يأتي بمفسدة أكبر وهذا أمر لا يجوز بحال من الأحوال.

ولقد خشي بعض الأنصار أن يكون الأمان الذي منحه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقريش وتسامحه معهم دليلا على رغبته في قريته ورغبته في المقام بين أبناء عشيرته، فأخبره الوحي بما قالوا فخاطبهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يا معشر الأنصار**». قالوا: لبّيك يا رسول الله قال: «**قلتم أمّا الرّجل فأدركته رغبة في قريته**». قالوا: قد كان ذاك. قال «**كلّا إنّي عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم**». فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الّذي قلنا إلّا ضنّا [1] بالله وبرسوله. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّ الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم**» [2].

خطبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثاني من الفتح:

وفي اليوم الثاني للفتح بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن خزاعة حلفاءه عدت على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك برجل قتل في الجاهلية، فغضب وقام بين الناس خطيباً فقال: ياأيها الناس إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم

(١) الضن: هو الشح.

(٢) مسلم، الصحيح ٣/ ١٤٠٦ حديث ١٧٨٠، وأورد الإمام البخاري أن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كان سينزل في بيته، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟»، ولذلك فقد أقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبة ضربت له في الحجون (البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٧)، (مسلم، الصحيح ١/ ٥٦٧).

الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد - يقطع - فيها شجراً لم لا تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلّها لرسوله ولم يحلها لكم.

يامعشر خزاعة: ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينّه، فمن قتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا قُدِّم قاتله، وإن شاؤوا فعقله)[1].

ثم أقامَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكةَ لتوطيدِ التوحيدِ ودعائمِ الإسلام وتثبيتِ الإيمان ومبايعةِ الناسِ. وفي الصحيح عن مجاشع قال: أتيتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأخي بعد الفتح ليبايعَه على الهجرةِ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذهبَ أهلُ الهجرةِ بما فيها ولكنْ أبايعَه على الإسلامِ والإيمانِ والجهادِ**»[2].

والمراد أن الهجرة التي كانت واجبة من مكة قد انتهت بفتح مكة، فقد عز الإسلام، وثبت اركانه ودعائمه، ودخل الناس فيه أفواجا، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو من بلد لايقدر أن يقيم فيه دينه ويظهر شعائره إلى بلد يتمكن فيه من ذلك فهي باقية إلى يوم القيامة، ولكن هذا دون تلك، فقد تكون واجبة؛ وقد تكون غير واجبة، كما أن الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع وباق إلى يوم القيامة ولكنه ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة قال عز شأنه،: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ [الحديد: ١٠][3].

ولما فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة، على أن لايشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، ولما قال النبي: «**ولا يسرقن**» قالت هند: يارسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني مايكفيني ويكفي بنيَّ، فهل عليّ من حرج إذا أخذت من

(١) السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١) وعقله: ديته.
(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٣٠٥ (٥/ ١١٤).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).

ماله بغير علمه؟ فقال لها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خذي من ماله مايكفيك وبنيك بالمعروف**» . ولما قال: «**ولا يزنين**» قالت هند: وهل تزني الحرة؟ ولما عرفها رسول الله قال لها: «**وإنك لهند بنت عتبة؟**» قالت: نعم ، فاعف عما سلف عفا الله عنك .

وقد بايعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير مصافحة ، فقد كان لايصافح النساء ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه ، وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: (لا والله ، مامست يد رسول الله يد امرأة قط) وفي رواية: (ماكان يبايعهن إلا كلاماً ويقول: «**إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة**»[1] .

سرية خالد بن الوليد إلى العزى :

وبعد تطهير البيت العتيق من الأصنام عاد البيت كما أراه الله تعالى مركزا للتوحيد الخالص ، وكان ذلك أكبر ضربة للوثنية في جزيرة العرب حيث كانت الكعبة من أعظم مراكزها ، وإتماما لهذا الهدف الأساسي ، فإنه ما أن تم فتح مكة وجرى تطهير الكعبة ، حتى بادر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى إرسال بعض أصحابه لهدم ما تبقى من مراكز الوثنية ، فقد وجّه خالد بن الوليد إلى نخلة[2] من ديار ثقيف لهدم «العزّى» التي كانت لها مكانة عظيمة عند العرب عامة وقريش خاصة ، حيث كانوا يزورونها ويهدون إليها ويتقربون عندها بالذبائح ، وقد بلغ من تعظيمهم لها أن قريشا حمت لها شعبًا من وادي حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة ، كما جعلوا لها منحرًا خاصًّا ينحرون فيه هداياها يقال له: الغبغب[3] .

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ، فاشتد ذلك على قريش فأخذت تدافع عن آلهتها بكل ما تملك من قوة ، وأعلنت الحرب على المسلمين من أجلها ، بل إن أبا سفيان بن حرب قال يوم أحد للمسلمين مفتخرًا بها: لنا العزى ولا عزى لكم ، فرد عليه المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم .

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٣١٩) .

(٢) كانت بواد من نخلة الشامية يقال له: حراض بإزاء الغمير على عين المصعد إلى العراق من مكة وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال . ابن الكلبي ، الأصنام ، ص١٨ .

(٣) ابن الكلبي ، الأصنام (١٩ - ٢٠) .

ويوم جاء الحق وزهق الباطل - يوم الفتح الأعظم - يومها تساقطت تلك الأصنام المحيطة بالكعبة المشرفة على يد نبي الهدى والرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم بث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سراياه وبعوثه لتحطيم بقية معاقل الشرك والوثنية منها سرية قوتها ثلاثون فارسًا [1] بقيادة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، توجهت إلى الطاغوت الأعظم منزلة ومكانة عند قريش وسائر العرب العزى، لخمس ليال بقين من شهر رمضان[2].

انطلق خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه لإزالة ذلك الطاغوت من الوجود نهائيًا، وعندما وصلت السرية إلى العزى قام إليها خالد "فقطع السمرات [3] وهدم البيت الذي كان عليها"[4] وهو يردد: "كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك"[5].

ثم رجع خالد وأصحابه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقدم تقريره بإنجاز المهمة، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استدرك على قائد السرية: "هل رأيت شيئًا؟، قال: لا"[6] فقال: ارجع فإنك لم تصنع شيئًا"[7].

فرجع خالد وهو متغيظ حنق على عدم إنهاء مهمته على الوجه المطلوب، فلما وصل إليها ونظرت السدنة [8] إليه عرفوا أنه جاء هذه المرة ليكمل ما فاته في المرة السابقة فهربوا إلى الجبل وهو يصيحون "يا عزى خبليه، يا عزى عوريه. فأتاه خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها"[9].

---

(١) الواقدي، مغازي (٣/ ٨٧٣).

(٢) انظر ابن خياط، تاريخ (٨٨)، وابن هشام، سيرة (٤/ ٤٣٦)، الطبري، تاريخ (٣/ ٦٥)، والعامري، بهجة (١/ ٤٤٥). انظر الواقدي، مغازي (٣/ ٨٧٣)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٥).

(٣) والسمرات جمع سمرة: وهي شجرة السمر بفتح السين وضم الميم: وهي من شجر العضاه أي ذي الشوك، وشوكها قصير، وورقها صغير، ولها برم، أي ثمر أصفر، ويُؤكل.

(٤) أخرج ذلك النسائي، وأبو نعيم، والبيهقي عن أبي الطفيل رضي الله عنه. انظر ابن كثير، تفسير (٤/ ٤٥٤)، وأبا نعيم، دلائل (٢/ ٥٣٥)، والبيهقي، دلائل (٥/ ٧٧).

(٥) ابن خياط، تاريخ (٨٨).

(٦) الواقدي، مغازي (٣/ ٨٧٤)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٦).

(٧) انظر أبا نعيم، دلائل (٢/ ٥٣٥)، والبيهقي، دلائل (٥/ ٧٧)، وابن كثير، تفسير (٤/ ٤٥٤).

(٨) السدنة جمع السادن: هو خادم بيت الأصنام.

(٩) انظر أبا نعيم، دلائل (٢/ ٥٣٥)، والبيهقي، دلائل (٥/ ٧٧)، وابن كثير، تفسير (٤/ ٤٥٤).

فقدم إليها خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشجاعته الإيمانية المعروفة، وضربها بالسيف حتى قتلها" ثم رجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بذلك فقال: "تلك هي العزى"[1] [2].

سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة:

مناة اسم صنم كانت على ساحل البحر الأحمر مما يلي قديدا[3] في منطقة تعرف بالمشلل[4]. وكانت للأوس والخزرج وغسان ومن دان بدينهم، يعبدونها ويعظمونها في الجاهلية ويهلون منها للحج، وقد بلغ من تعظيمهم إياهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة تحرجًا وتعظيمًا لها حيث كان "ذلك سنة في آبائهم من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة"[5].

ولم تزل هذه عادتهم حتى أسلموا "فلما قدموا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحج ذكروا ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية"[6].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

---

(١) أبو نعيم، دلائل (٢/ ٥٣٥)، والبيهقي، دلائل (٥/ ٧٧)، ابن كثير، تفسير (٤/ ٤٥٤).

(٢) ابن سعد، طبقات (٦/ ٣٥٤)، وابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٩/ ٨)، وابن حبان، الثقات (٥/ ٤٩٢)، والذهبي، ميزان الاعتدال (٤/ ٣٣٧)، وابن حجر، تهذيب التهذيب (١١/ ١٣٨ - ١٣٩)، وتقريب التهذيب (٥٨٢). أبو يعلى، المسند (٢/ ٥٣٥)، والنسائي، السنن الكبرى - كتاب التفسير (٤/ ١٧)، وأبو نعيم، دلائل (٢/ ٥٣٥)، والبيهقي، دلائل (٥/ ٧٧).

(٣) قديد: ثرية جامعة، مذكورة في رسم الفرع، وفي رسم العقيق، وهي كثيرة المياه والبساتين، وسميت قديدا لتقدد السيول بها، وهو واد فحل من أودية الحجاز التهامية يأخذ أعلى مساقط مياهه من حرة "ذرة" فيسمى أعلاه ستارة، وأسفله قديدا، يقطعه الطريق من مكة إلى المدينة على نحو من (١٢٠) كيلوا مترا ثم يصب في البحر عند القضيمة، فيه عيون، وقرى كثيرة لحرب وبني سليم. انظر البكري، معجم (٣/ ١٠٥٤)، والبلادي، معجم (٢٤٩).

(٤) المشلل: قال عنها البكري: والمشلل من قديد وبالمشلل كانت مناة. وقال مالك: كانت حذو قديد. البكري، معجم ما استعجم (٣/ ١٠٥٥).

(٥) ابن حجر، فتح (٨/ ١٧٥، ٣/ ٤٩٨)، وعند مسلم. النووي على مسلم (٩/ ٢٢ - ٢٣ - ٢٤)، وعند أحمد بسند صحيح. البنا، الفتح (١٨/ ٧٩).

(٦) صحيح موقوف أخرجه مسلم عن عروة عن عائشة رضي الله عنها. النووي على مسلم (٩/ ٢٢).

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشرك في الجزيرة العربية ومبتدع الأوثان محرف الحنيفية دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الخزاعي عمرو بن لحي[1].

ولما كان الفتح الأعظم في السنة الثامنة من الهجرة سنة تحطيم الأوثان وبالتحديد في الرابع والعشرين من شهر رمضان[2] بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها رجلا من أهلها سابقا الذين كانوا يعظمونها في الجاهلية وهو سعد بن زيد الأشهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رأس سرية قوتها عشرون فارسًا[3] وكان واجب السرية هو إزالة مناة من الوجود نهائيًا.

انطلق زيد ومن معه في مسير اقترابي سريع لإنجاز المهمة المحددة حتى وصل إليها فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها". فصاح بها السادن صيحة الواثق: "مناة دونك بعض عصاتك" ولكن صيحته ذهبت أدراج الرياح، فلم يأبه سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ذلك ويضربها ضربة إيمانية قاتلة قضت عليها، ثم يقبل على الصنم مع أصحابه "فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئا، وانصرف راجعا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4].

وتزول مناة من الوجود كما زالت من قبل من القلوب، ويطوف الأنصار بين الصفا والمروة من غير جناح ولا حرج[5].

سرية عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى سواع[6]:

وسواع اسم صنم كان لقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل المضرية[7].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب

---

(١) ابن حجر، فتح الباري (٣/ ٤٩٩). الفاكهي، أخبار مكة (٥/ ١٦٣).
(٢) ابن سعد، الطبقات (٢/ ١٤٦)، عيون (٢/ ٢٣٨)، الشامي، السبل (٦/ ٣٠٤).
(٣) ابن كثير، تفسير (٥/ ٢٥٤)، والزرقاني، شرح (٢/ ٣٤٩)، ابن هشام، سيرة (١/ ٨٦)، ابن كثير، بداية (٤/ ٣٧٥)، والطبري، تاريخ (٣/ ٦٦).
(٤) ابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٦). الطبري، تاريخ (٣/ ٦٣)، ابن هشام، سيرة (١/ ٨٦).
(٥) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٨٩.
(٦) وسمي باسم سواع بن نوح عليه السلام. انظر الشامي، سبل (٦/ ٣٠٣)، الحلبي، سيرة (٣/ ٢٠٩).
(٧) سيرة ابن هشام (١/ ٧٨)، ابن الكلبي، الأصنام، ص٥٦.

بعد، أما وَدٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع"[1].

وكان سواع هذا حجرًا على صورة امرأة وظل هذا الوثن منصوبا تعبده هذيل وتعظمه[2] حتى إنهم كانوا يحجون إليه حتى فتحت مكة ودخلت هذيل فيمن دخل في دين الله أفواجا. بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية بقيادة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتحطيم سواع.

ويحدثنا قائد السرية عن مهمته، فيقول: "فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟، قلت: أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟، قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل، ويحك وهل يسمع أو يبصر، قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئًا، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟. قال: أسلمت لله"[3].

وهكذا تم القضاء على سواع الذي لم يجد من يدافع عنه بقوله: "ولا تذرن سواعًا"[4].

سرية الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفلين:

وأرسل الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطفيل بن عمرو الدوسي لإحراق (ذي الكفّين)[5] صنم عمرو بن حممة الدوسي، ثم يستمد قومه ويوافيه مع المدد إلى الطائف، وقد نفذ الطفيل بن عمرو أوامر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهدم «ذي الكفين» وحرقه وجعل يحش النار في جوفه ويحرقه ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا ::: ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حششت النار في فؤادكا

ثم انحدر معه من قومه ٤٠٠ سراعا فوافوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطائف بعد

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٦٧ - ٦٦٨).
(٢) الطبري، تاريخ (٣/ ٦٦). فتح الباري (٨/ ٦٦٩) الشامي، سبل (٦/ ٣٠٣).
(٣) ابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٦)، الواقدي، مغازي (٢/ ٨٧٠)، الطبري، تاريخ (٣/ ٦٦)، الشامي، سبل (٦/ ٣٠٣)، والحلبي، سيرة (٣/ ٢٠٩).
(٤) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٩٣.
(٥) وذو الكفين صنم من خشب لعمرو بن حممة الدوسي.

مقدمه بأربعة أيام وقدم بدبابة ومنجنيق [1]

ونستفيد من حركة السرايا التي أرسلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقضاء على الأصنام والأوثان أنه لايجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة.

وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، لايجوز منها إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى أو أعظم شركاً عندها وبها[2].

وفي فتح مكة نزل قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [النصر][3].

نتائج فتح مكة:

ولقد كان من أبرز نتائج فتح مكة مبادرة قبائل العرب إلى قبول الإسلام بعد أن تيقنوا من نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش، وقد أورد الإمام البخاري رواية من حديث عمرو بن سلمة جاء فيها: أن العرب كانت «تلوّم بإسلامها الفتح، يقولون: انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبي، فلما جاءتنا وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم[4]

ويرى ابن إسحاق أن العرب كانت «تربّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عز وجل أفواجا يضربون إليه من

(١) ابن هشام، السيرة ٢/ ٣٨٥.
(٢) السرايا والبعوث النبوية، ص٣٠٢.
(٣) البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٩ (حديث ٤٢٩٤).
(٤) البخاري، الفتح ٧ (٤٣٠٢).

كل وجه» [1].

- ومن نتائج فتح مكة المكرمة تحول مركز ثقل معسكر الشرك إلى الطائف حيث سارعت كل من قبيلتي هوازن وثقيف إلى التصدي للإسلام وقيادة معسكر الشرك المعادي له[2].

الأحكام الشرعية المهمة من فتح مكة:

وإضافة إلى ما تحقق في فتح مكة من اتساع رقعة ديار الإسلام، وتسارع وتيرة دخول العرب في الإسلام، وإنهاء مقاومة قريش وحلفائها، وتحولهم إلى قوة إيجابية دافعة لنشر العقيدة الإسلامية والتصدي لخصومها ودفع الخطر عنها فقد اتضحت بعض الأحكام الشرعية المهمة من جراء فتح مكة وخلال أحداث غزوتها، من ذلك:

- جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية؛ حيث صام الرسول في مسيرة الجيش من المدينة حتى بلغ كديدًا فأفطر [3].

- قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي بمكة تسعة عشر يوما يقصر الصلاة [4].

- صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الضحى ثماني ركعات خفيفة، واستدل قوم بهذا على أنها سنة مؤكدة [5].

- وكان في إقرار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجوار أم هاني [6] إقرارا لأمان النساء [7].

- وقد أبيحت المتعة يوم الفتح ثم حرمت بعد ذلك تحريما أبديا إلى يوم القيامة [8].

---

(١) ابن هشام، سيرة ٢/ ٥٦٠.
(٢) انظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ١ / ٣٧٣.
(٣) مسلم، الصحيح ١/ ٤٥١.
(٤) البخاري، الصحيح ٥/ ١٩٠.
(٥) البخاري، الصحيح ٥/ ١٨٩، مسلم، الصحيح ١/ ٢٨٩.
(٦) البخاري، الصحيح ٤/ ١٢٢.
(٧) أبو داود، عون المعبود ٧/ ٤٤.
(٨) مسلم، الصحيح بشرح النووي ٣/ ٥٥٣، وانظر الصحيح ١/ ٥٨٦، ٥٨٧.

- كما توضحت الأحكام الخاصة بنكاح المشرك إذا أسلمت زوجته قبله [١]

- قرر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة بن زمعة ، فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زمعة ، فقضى فيه رسول الله لعبد الله بن زمعة لأنه ولد على فراش أبيه [٢]

- ومنها حق الزوجة في الإنفاق على نفسها وعيالها من مال زوجها بالمعروف دون علمه إذا امتنع عن النفقة [٣]

- ومنها تحريم بيع الخمر والميتة والأصنام والأوثان [٤]

- ومن ذلك تحريم الشفاعة في حد من حدود الله [٥] .

- ومنها منع صبغ الشيب بالسواد وبيان حكم خضابه بالحناء [٦] .

- والنهي عن قتل المرأة مادامت لا تقاتل [٧] .

- عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال ، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه بمكة واستشارة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أن يوصي بأكثر من الثلث [٨] .

- ومنها جواز دخول مكة بغير إحرام [٩][١٠] .

مواقف ودروس:

-موقف عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لما حدث ما حدث من حاطب بن أبي بلتعة قال عمر: يا رسول الله ، دعني اضرب عنق هذا المنافق ، فقال: «**إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على**

(١) مالك ، الموطأ (شرح الزرقاني ٣/ ١٥٦ ، ١٥٧) .
(٢) البخاري ، الصحيح ٨/ ١٩١ .
(٣) مسلم ، الصحيح ٢/ ٦٠ .
(٤) البخاري ، الصحيح ٣/ ١١٠ ، مسلم ، الصحيح ١/ ٦٩٠ ، ٦٨٩ .
(٥) البخاري ، الصحيح ٥/ ١٩٢ ، مسلم ، الصحيح ٢/ ٤٧ .
(٦) مسلم ، الصحيح ٢/ ٢٤٤ .
(٧) البخاري ، الصحيح ، فتح (حديث ٣٠١٤ - ٣٠١٥) ، مسلم ، الصحيح (حديث ١٧٤٤) ، أحمد ، المسند ٢/ ١١٥ .
(٨) البخاري ، الصحيح ، الفتح الأحاديث ٢٧٤٣ ، ٢٧٤٤) ، الترمذي ، السنن ٣/ ٢٩١ .
(٩) البخاري ، الصحيح ، فتح الباري (حديث ٤٢٨٦) ، مسلم ، الصحيح (حديث ١٣٥٨) .
(١٠) انظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ١ / ٣٧٣ .

من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1] ومن هذا الموقف يمكن أن نستخرج بعض الدروس والعبر منها:

- حكم الجاسوس القتل، فقد أخبر عمر بذلك ولم ينكر عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن منع من إيقاع العقوبة بسبب كونه بدرياً.

- شدة عمر في الدين: لقد ظهرت هذه الشدة في الدين حينما طالب بضرب عنق حاطب.

- الكبيرة لا تسلب الإيمان: إن ماارتكبه حاطب كبيرة وهي التجسس ومع هذا ظل مؤمناً.

- لقد أطلق عمر على حاطب صفة النفاق بالمعنى اللغوي لا بالمعنى الاصطلاحي في عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إذ النفاق إبطان الكفر والتظاهر بالإسلام، وإنما الذي أراده عمر، إنه أبطن خلاف ماأظهر إذ أرسل كتابه الذي يتنافى مع الإيمان الذي خرج يُجاهد من أجله ويبذل دمه في سبيله[2].

- تأثر عمر من رد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتحول في لحظات من رجل غاضب ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطب إلى رجل يبكي من الخشية والتأثير ويقول: الله ورسوله أعلم، ذلك لأن غضبه كان لله ولرسوله فلما تبين له أن الذي يرضي الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو غضٌ النظر عن ذلك الخطأ ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد استجاب لذلك[3].

- لا سابقة يُقتدى بها في عمل حاطب؛ ذهب لهذا الرأي الدكتور عبدالكريم زيدان حيث قال: لا يجوز الاقتداء بعمل حاطب في العفو عمن يعمل عمله، لأن العفو عنه كان لعلة لم يعد يمكن تحقيقها في غيره بعد عصر الصحابة وهو كونه شهد بدراً، فعلى الجماعة أن تفقه ذلك، وهذا ما فقهه الإمام مالك إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم؛ مما يدل على أن إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه؛ فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة مافعله حاطب أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقه[4]، وناقش هذه المسألة العلامة ابن القيم وذكر أقوال الأئمة الأربعة ثم قال: والصحيح أن قتله راجح إلى رأي الإمام، فإن

(١) مسند أحمد (١/ ٢١٣).
(٢) السيرة النبوية لأبي فارس، ص٤٠٤.
(٣) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٧٦، ١٧٧).
(٤) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٢).

رأى في قتله مصلحة للمسلمين ، قتله ، وإن كان استبقاؤه أصلح ، استبقاه[1] .

- إسلام أبو سفيان:

إن في هذه القصة دروس وعبر وحكم في كيفية معاملة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنفوس البشرية ومن أهم هذه الدروس:

- عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين ، وأصبح رهن إشارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهم به عمر ، وأجاره العباس ، ثم جاء في صبيحة اليوم الثاني ليمثل بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يدعى إلى الإسلام ، فتأثر بهذا الموقف واهتز كيانه فلم يملك أن يقول: بأبي أنت وأمي يامحمد ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . إنه يفدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبيه وأمه ، ويثني عليه الخير كله: ماأحلمك وأكرمك وأوصلك[2] ، وعندما قال العباس للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**» . . . ففي تخصيص بيت أبي سفيان شيئاً يشبع ماتتطلع إليه نفس أبي سفيان ، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه[3] ، وكان هذا الاسلوب النبوي الكريم عاملا على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان وبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش ، لن تنتقص شيئاً في الإسلام إن هو أخلص له وبذل في سبيله[4] وهذا منهج نبوي كريم على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ويعملوا به في تعاملهم مع الناس[5] .

- وفي قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمه العباس عن أبي سفيان: أحبسه بمضيق الوادي ، حتى تمر به جنود الله فيراها[6] ، ففعل العباس وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يشن حرباً نفسية للتأثير على معنويات قريش حتى يتسنى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكة ، وحتى يرى أبو سفيان بعينيّ رأسه مدى قوة ماوصل إليه الجيش الإسلامي من تسليح وتنظيم وحسن طاعة وانضباط

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٤٣) .
(٢) فقه السيرة النبوية للغضبان ، ص٥٦٤ .
(٣) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٣) .
(٤) محمد قلعجي ، قراءة سياسية للسيرة النبوية ، ص٢٤٥ .
(٥) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، ٢/ ٤٥٥ .
(٦) سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢) .

وبذلك تتحطم أي فكرة في نفوس المكيين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل مكة لتحريرها من براثن الشرك والوثنية[1]، وبالفعل تم مارسمه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين وأنه لاقبل لقريش بهم حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار قال أبو سفيان: سبحان الله! ياعباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المهاجرين والأنصار. قال: مالأحد بهؤلاء قِبلٌ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة قال: فنعم إذا . . .)[2].

- إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة وظهر، انقحمت[3] بيتي وأغلقت عليّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبدالله بن سهيل أن اطلب لي جواراً من محمد، وإني لا آمن من أن أقتل. وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثراً مني، وإني لقيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية بما لم يلحقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدراً وأحداً، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبدالله بن سهيل إلى رسول الله فقال: يارسول الله تؤمنه؟ فقال: «**نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر!**» ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن حوله: «**من لقي سهيلاً بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف ومامثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ماكان يُوضع فيه أنه لم يكن له بنافع!**» فخرج عبدالله إلى أبيه، فقال سُهيل: كان والله بَراً، صغيراً وكبيراً! فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرّانة[4].

لقد كانت لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو حيث أثنى على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبر طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك، وقد حسن إسلامه وكان مكثراً من الأعمال الصالحة[5]، يقول الزبير بن

(١) القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص٤٤٧.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٢).
(٣) أي رميت بنفسي.
(٤) مغازي الواقدي (٢/ ٨٤٦ - ٨٤٧)؛ المستدرك للحاكم (٣/ ٣٨١).
(٥) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٢١٦، ٢١٧).

بكار: كان سهيل بعد كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميراً على كردوس[1] يوم اليرموك[2].

-إسلام صفوان بن أمية:

قال عبدالله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: . . . وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشُّعَيبة[3]. وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: وَيْحك انظر من ترىً قال: هذا عمير بن وهب. قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ماجاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمد عليّ. فلحقه فقال: ياعمير، ماكفاك ماصنعت بي؟ حمّلتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس. وقد كان عُمير قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يارسول الله، سيد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تُؤمِّنه فداك أبي وأمي! قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد أمنته**»، فخرج في أثره فقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمنك. فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يارسول الله، جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنته فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خذ عمامتي**».

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البرد الذي دخل فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ مُعتجراً[4] به، بُرد حَبَرة[5]. فخرج عمير في طلبه الثانيةن حتى جاء بالبُرد فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مَجْده مَجْدك، وعزه عزك، ومُلكه مُلكك ابن أمك وأبيك. اذكر الله في نفسك. قال له: أخاف أن أقتل. قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرهم وقد بعث

---

(١) كردوس: فرقة كبيرة.

(٢) سيرة أعلام النبلاء (٢/ ١٩٥).

(٣) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز وهو كان مرفأ مكة ومرس سفنها قبل جدة. معجم البلدان (٥/ ٢٧٦).

(٤) الاعتجاز بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه. (النهاية ٣/ ٦٩).

(٥) الحبرة: ضرب من ثياب اليمن.

إليك بُبْرده الذي دخل فيه معتجراً، تعرفه؟ قال: نعم. فأخرجه، فقال: نعم، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا. فقال صفوان: كم تُصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يُصلي بهم محمد؟ قال: نعم. فلما سلّم صاح صفوان: يامحمد، إن عمير بن وهب جاءني بُبردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك. فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين. قال: «**انزل أبا وهب**». قال: لا والله، حتى تبين لي قال: بل تُسيَّر أربعة أشهر، فنزل صفوان.

وخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعاً أو كرهاً؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عارية مُؤَداة**»، فأعاره، فأمره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحملها إلى حنين، فشهد حنُيناً، والطائف ثم رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شعْب مُلئ نَعَماً وشاءً ورعاءً فأدام إليه النظرن ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرمقه فقال: «**أبا وهب، يعجبك هذا الشِّعب؟**» قال: نعم. قال: هو لك ومافيه. فقال صفوان عند ذلك: ماطابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله وأسلم مكانه[1].

ونلاحظ في هذا الخبر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم، وذلك بإعطائه الأمان ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر، ثم بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لاتصدر من إنسان عادي، فأعطاه أولاً مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة ثم أعطاه مافي أحد الشعاب من الإبل والغنم فقال: ما طابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي ثم أسلم مكانه[2]، وقد وصف لنا صفوان بن أمية عطاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: والله لقد أعطاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماأعطاني وإنه لابغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ)[3][4].

---

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٨٥٣ - ٨٥٥).

(٢) التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٠).

(٣) مسلم، كتاب الفضائل رقم ٢٣١٣، ص١٨٠٦.

(٤) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢/ ٥٦٧.

- إسلام عكرمة بن أبي جهل:

قال عبدالله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل: يارسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمّنه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هو آمن**»، فخرجت أم حكيم في طلبه ومعها غلام لها روميّ، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حَيٍّ من عَكّ[1]، فاستغثتهم عليه فأوثقوه رباطاً، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيُّ السفينة يقول له: أخلص! فقال: أي شيء أقول: قال: قل لا إله إلا الله. قال عكرمة: ماهربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، لا تُهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني قد أستأمنت لك محمداً رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمنّك فرجع معها وقال: مالقيت من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره فقتله عكرمة، وهو يؤمئذ لم يُسلم، فلما دنا من مكة قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «**يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تَسُبّوا أباه، فإن سبّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت**».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها، فتأبى عليه وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة. فيقول: إن أمراً منعك مني لأمر كبير، فلما رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عكرمة وثب إليه - وماعلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رداء - فرحاً بعكرمة، ثم جلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوقف بين يديه، وزوجته مُتنقبة، فقال: يامحمد إن هذه أخبرتني أنك أمَّنتني. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صدقت، فأنت آمن!**» فقال عكرمة: فإلى ما تدعو يامحمد؟ قال: «**أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة - وتفعل، وتفعل، حتى عدّ خصال الإسلام**». فقال عكرمة: والله مادعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى مادعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرُّنا برّا. ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فسُرّ بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: يارسول الله علمني خيرَ شيء أقوله. قال: «**تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله**». قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تقول أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم**

(١) عك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية. معجم ما استعجم، ص٢٢٣.

مهاجر ومجاهد». فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله: «**لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه**»، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اغفر له كل عداوة عاداني، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له مانال مني من عرض، في جهي أو أنا غائب عنه!**» فقال عكرمة: رضيت يارسول الله، لاأدع نفقة كنت أنفقها في صدّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل لله ثم اجتهد في القتال حتى قتل شهيداً[1].

وبعد أن أسلم رد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأته له بذلك النكاح الأول[2].

لقدكان سلوك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له ورحب به وفي رواية قال له: «**مرحباً بالراكب المهاجر**»[3]، فتأثر عكرمة من ذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه، فأسلم، كما كان لموقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام أثر في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغامرت بنفسها تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها امتنعت عنه وعللت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنه أمام دين عظيم وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام ثم تُوّج بإسلامه بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان صادقاً في إسلامه فلم يطلب من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دنيا وإنما سأله أن يغفر الله تعالى له من كل ماوقع فيه من ذنوب ماضيه، ثم أقسم أمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ماكان ينفق في الجاهلية، وأن يُبليَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ماكان يبذله في الجاهلية ولقد بر بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة ثم في فتوح الشام حتى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل

---

(١) يعني يوم اليرموك.

(٢) مغازي الواقدي (٢/ ٨٥١ - ٨٥٣).

(٣) مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥).

نفسه وماله في سبيل الله[1].

إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟**» قال أبو بكر: يارسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «**أسلم**»، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**غيروا هذا من شعره**»[2]، ويروى أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه[3].

وفي هذا الخبر منهج نبوي كريم سنّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في توقير كبار السن واحترامهم ويؤكد ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا**»[4]. وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم**»[5]، كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سن إكرام أقارب ذوي البلاء والبذل والعطاء والسبق في الإسلام تقديراً لهم على ما بذلوه من خدمة للاسلام والمسلمين ونصر دعوة الله تعالى[6][7].

- إسلام فضالة بن عمير:

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضالة؟**» قال: نعم فضالة يارسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لاشيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «**استغفر الله**»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله مارفع يده عن صدري حتى مامنْ خلق الله شيء أحبُّ إلى منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت

---

(١) التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٤، ٥٥).
(٣) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٥٧٧.
(٤) سنن الترمذي، كتاب البر، باب ١٥.
(٥) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ٢٠.
(٦) التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٩٥).
(٧) السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢ / ٥٦٨.

بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت: هَلمَّ إلى الحديث ، فقلت: لا ، وانبعث فضالة يقول:

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت لا ::: يأبى عليك اللهُ والاسلامُ
لرأيت دين الله أضحى بَيِّناً ::: بالفتح يوم تكسَّر الأصنام
لو مارأيت محمداً وقبيله ::: والشرك يغشي وجهه الإظلام[1]

- إسلام عبدالله الزبعري شاعر قريش:

لما فتحت مكة فر عبدالله الزبعري السهمي إلى نجران فلحقته قوافي حسان فقد كان خصماً عنيداً للإسلام ، فراح يعيره بالجبن والفرار فقال له:

لا تعد من رحلاً أحَلَّك بُغضُه ::: نجران من عيش أحذَّ لئيم[2]

أي فليبق الله لنا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الرجل العظيم الذي أحللك بغضه ديار نجران ، وليُدم الله عليك ابن الزبعري عيشاً ذليلاً مهيناً أشأم .

ثم راح حسان يستنزل غضب الله ومقته على ابن الزبعري وعلى نجله ويسأل الله تعالى أن يخلده في سوء العذاب وأليمه[3]:

غضب الإله على الزبعري وابنه ::: وعذاب سوء في الحياة مقيم

فتطايرت تلك الأبيات ووصلت إلى ابن الزبعري فقام وقعد وقلّب أموره ثم اراد الله به الخير فعزم على الدخول في الإسلام ثم توجه إلى مكة وقصد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعلن أسلامه وطلب من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستغفر له كل عداوة له وللإسلام فقال له رسول الله: «**إن الإسلام يجب ماقبله**»[4] . ثم ادناه رسول الله منه وآنسه ، ثم خلع عليه حله[5] ، وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال بعد إسلامه شعراً كثيراً حسناً يعتذر فيه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[6] ، قال ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ: وله - ابن الزبعري - في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشعار كثيرة ، ينسخ بها ماقد مضى من شعره في كفره[7] .

---

(١) التاريخ الإسلامي (٧/ ٢١٣) .
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٧) .
(٣) محمد كابتي ، الصحابي الشاعر عبدالله بن الزبعري ، ص٩٢ .
(٤) المغازي (٢/ ٨٤٨) .
(٥) الزركلي ، الأعلام (٤/ ٨٧) ؛ الإصابة لابن حجر (٢/ ٣٠٨) .
(٦) الصحابي الشاعر عبدالله بن الزبعري ، ص٩٧ .
(٧) الاستيعاب لابن عبدالبر (٢/ ٣١٠) .

وكذا نص ابن حجر في الإصابة: ثم أسلم، ومدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر له بحلة[1].

وقال القرطبي: (وكان شاعراً مجيداً، وله في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أشعاراً كثيرة، ينسخ بها ماقد مضى في كفره[2]...) وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم منّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذب عنه[3].

محصلة فتح مكة:

نعم إن الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين المعتدي والمعتدي عليه قديم قدم الإنسانية، وقد عرفت الإنسانية الحرب على مر الدهور وكر العصور، فالحرب ضرورة إنسانية واجتماعية، ووسيلة من وسائل حل المشاكل الاجتماعية، وإذا كان الإسلام قد أتاح الحرب - كغيره من الديانات والحضارات - ولكنه حاطها بالملطفات بما لم تبلغ إليه مدينة القرن العشرين، ولا إلي ما يقرب منه، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التي يعتبرها الأوروبيون مقدسة، فالإسلام إذاً لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ولكنه انفرد كعادته بتلطيف آثارها إلي آخر حد يمكن الوصول إليه، بدون الإخلال بسلامة الحوزة، فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً، كلها ترقي إلي احترام الدماء البشرية والعمل بأرقي ضروب العطف على الإنسانية، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت تري فيه الإنسانية أن الحرب أصبحت أداة وحشية، وأن التفاهم فيه العطف خير بدلاً منها، فإنهم عليهم أن يتابعوا الإنسانية في ترقيتها ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب وحشية، والجري على ما يجري عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية.

وهذه المعاني والقيم الإنسانية والحضارية التي صاغها الإسلام في الحرب قد تجسدت بوضوح في فتح مكة، فالخسائر لا تذكر إضافة إلى القيم والمعاني الإنسانية التي أرساها الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللنظر إلي محصلة الفتح:

- حادث سرقة واحدة لأخت أبي بكر الصديق لم يعرف صاحبها» فقام أبو

---

(١) الإصابة (٢/ ٣٠٨).

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٤٠٧).

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٨).

بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشدكم بالله والإسلام طوق أختي ؛ فوالله ما جاء أحد ، ثم قال الثانية والثالثة فما جاء به أحد ، فقال: يا أخية احتسبي طوقك ؛ فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل .

قال ابن كثير: يعني به الصديق ذلك اليوم على التعيين لان الجيش فيه كثرة ولا يكاد أحد يلوي على أحد مع انتشار الناس ولعل الذي أخذه تأول أنه من حربي والله أعلم .

- حادث سرقة آخر قامت به امرأة قرشية مخزومية ضبطت متلبسة بجرمها ، وجرت محاولات ووساطات كبرى لتفادي عقوبتها بقطع يدها .

- أتكلمني في حد من حدود الله ؟:

قال عروة بن الزبير: أن امرأة سرقت في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة الفتح ، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه . قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله . فلما كان العشيُّ قام رسول الله خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» . ثم أمر رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتلك المرأة فقطعت يدها .

فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت . قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] .

وهكذا يستمر البناء التربوي للأمة ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حد سواء ، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع رباني لايفرق بين الناس ، فهم كلهم أمام رب العالمين سواء ، وأصبحت معايير الشرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى ، وفي هذا الموقف الذي أثار غضب رسول الله الشديد واهتمامه الكبير لعبرة للمسلمين حتى لايتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى ، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلامية[2] .

حادثة قتل واحدة لثأر قديم:

أعطى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخزاعة التي قُتل منها أربعة وعشرون قتيلاً

(١) البخاري ، المغازي رقم ٤٣٠٤ .
(٢) معين السيرة ، ص٤٠٢ ؛ التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٣٣) .

غدراً ونُهبت أموالها حق الثأر لنفسها ساعة محددة من النهار فقال:» كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر ، فخبطوهم ساعة وهي الساعة التي أحلت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فلما كان بعد الفتح بيوم أقبل خراش بن أمية فحمل على جندب بن الأدلع الهذلي ، فطعنه في بطنه فمات . فجعلت حشوته تسيل من بطنه ، فسمع بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال: «**يا معشر خزاعة ! ارفعوا أيديكم عن القتل؛ فقد والله كثر إن نفع. إن أعدى الناس على الله من قتل في الحرم أو قتل غير قاتله أو قتل بذحول الجاهلية. فقد قتلتم قتيلاً لأدِيَنَّه. فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين إن شاؤوا فدِيتُه كاملة، وإن شاؤوا فقتله**» . ثم ودى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك الرجل الذي قتلته خزاعة . قال ابن هشام: مائة ناقة . وبلغني أنه أول قتيل وداه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] .

- بيوت المسلمين المهاجرين جميعاً كانت في مكة ، وهي حقهم المغتصب ؛ ومع ذلك فقد أبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استردادها ، بل نزل خارج مكة .

فقد روى البخاري وغيره عن أسامة بن زيد أنه قال: يا رسول الله ! أين تنزل غداً؟ تنزل في دارك؟ قال: «**وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دار**» [2] .

وكان عقيل قد باع منزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة ، فقيل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انزل في بعض بيوت مكة غير منازلك ، فأبى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**لا أدخل البيوت**» [3] ولم يزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً ، وكان يأتي المسجد لكل صلاة من الحجون [4] .

- الذين قتلوا في مكة كان هناك من قتل في الحرب والمواجهة مع خالد وخراش الذي سبق ذكره ، وكان هناك مجرمو حرب فثلثهم كانوا بالمدينة ، فارتدوا عن الإسلام وهربوا إلى مكة وقتلوا بعض القتلى . وآخرون كانوا من عتاة المجرمين ومن بينهم ثلاثة نسوة ارتدت إحداهن وكانت اثنتان منهن تغنيان بهجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان عددهم ثلاثة عشر أسلم ثمانية منهم واستؤمن لهم ،

---

(١) المغازي ، للواقدي ، ٢ / ٨٤٤ .
(٢) البخاري ، ح/ ٤٢٨٤ .
(٣) البخاري ، ح/ ٤٢٨٤ ، وفتح الباري ، ٨ / ٣٢٤ .
(٤) فتح الباري ، ٨ / ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

وقتل منهم خمسة»[1].

- هدمت أصنام المشركين فقط؛ فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل مكة يوم فتحها وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً مرصعة بالرصاص، وكان هبل أعظمها، وفي يد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوس وقد أخذ بسيَة القوس فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلما مر بصنم منها يشير إليه ويطعن في عينيه ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: ٨١] فما يشير إلى صنم إلا سقط لوجهه، وفي لفظ لقفاه من غير أن يمسه»[2].

- عفا رسول الله عن فضالة بن عمير الليثي من بني بكر الذي حاول اغتياله ومسح صدره ودعاه إلى الإسلام فأسلم.

- أما طعام الفاتحين، فقد روى الطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأم هانئ (ابنة عمه) يوم الفتح: هل عندك من طعام نأكله؟ قالت: ليس عندي إلا كسر يابسة (خبز يابس جاف)، وإني لأستحي أن أقدمها لك، فقال: هلمي بهن. فكسَّرهن في ماء وجاء بملح، فقال: هل من أدم؟ فقالت: يا رسول الله! ما عندي إلا شيء من خل، فقال: هلميه، فصبه على الطعام وأكل منه، ثم حمد الله، ثم قال: يا أم هانئ! لا يفقر بيت فيه خل»[3].

لقد جاء فتح مكة ليرسي ويحدد المبادئ العليا التي تنطلق منها البشرية مثل: - إعلان التوحيد: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»[4].

- إلغاء الجاهلية وآثارها:

«**لا إن كل رباً في الجاهلية أو دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدميَّ هاتين. وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث إلا سدانة البيت وسقاية الحاج**»[5].

فقد أعلن المبدأ، وأعلن تنفيذه مباشرة، فأسقط دم ابن عمه ربيعة بن الحارث

---

(١) مسلم، ح/ ١٧٨١، والبخاري، ح ٤٢٨٧.
(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ٤ / ٤٦.
(٣) مجمع الزوائد للهيثمي، ٦ / ١٧٦.
(٤) المغازي، للواقدي، ٢ / ٨٣٥، والسيرة النبوية، لابن هشام، ٢ / ١٦١، تاريخ الطبري، ٢ / ٤١٢.
(٥) المغازي، للواقدي، ٢ / ٨٣٥، والسيرة النبوية، لابن هشام، ٢ / ١٦١، وتاريخ الطبري، ٢ / ٤١٢.

وفي رواية: «**وأول رباً أضعه ربا العباس بن عبد المطلب**» فيسقط ربا عمه العباس مع دم ابن عمه ربيعة .

- دية قتيل الخطأ:

«**ألا وفي قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد الدية مغلظة مائة ناقة منها أربعون في بطونها أولادها**»[1] . . وذلك لتغليظ حرمة الدم فلا يتساهل فيه .

- إلغاء الفوارق الطبقية ، ووحدة البشرية:

«**ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها. كلكم لآدم وآدم من تراب**» ثم تلا هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣][2] . . .

فالناس كلهم من أصل واحد . يتفاوتون بقربهم من ربهم أو بعدهم عنه . وليس الأمر الضابط على سلطة الدولة فقط كما يقول الرئيس الأمريكي ؛ بل الضوابط على سلطة الخلق جميعاً بحيث لا يطغى فرد على فرد بنسب أو جاه أو مال . إنما الكفاءة والبر التقي الكريم .

لقد كان يعلن هذه المبادئ في بيت الله الحرام ، وفي سلطان قريش التي تفخر على العرب جميعاً بأنسابها ، وفي عشرة آلاف من العرب وبجوارهم ألفان من قريش ، ويسقط كل الفضل العربي أو المصري أو اليمني أو القرشي ؛ يعلن هذا ضد عواطف جيشه كله الذي يفخر بانتمائه العربي ويعتز بنسبه ، ويخوض الحروب والأهوال من أجل كرامة القبيلة وسيادتها .

ولم يكن إعلان هذا المبدأ نتيجة ثورة شعبية مثلت أكثرية جيشه اضطر لمجاراتها من الفرس والروم ، بل أعلن ذلك أمام قريش ومَنْ وراءها من العرب: «**إن الله أذهب عنهم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. كلكم لآدم وآدم من تراب**»[3] .

---

(١) المغازي ، للواقدي ، ٢ / ٨٣٥ ، والسيرة النبوية ، لابن هشام ، ٢ / ١٦١ ، وتاريخ الطبري ، ٢ / ٤١٢ .

(٢) المغازي ، للواقدي ، ٢ / ٨٣٥ ، والسيرة النبوية ، لابن هشام ، ٢ / ١٦١ ، وتاريخ الطبري ، ٢ / ٤١٢ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، حديث رقم ٣٢٧٠ .

- حرمة مكة والبيت الحرام، واعتبار السلم أساس العلاقات الدولية: «**ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، ووضع هذين الأخشبين؛ فهي حرام بحرام الله، لم تحل لأحد كان قبلي ولن تحل لأحد كائن بعدي، لم تحل لي إلا ساعة من نهار يقصرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده هكذا ولا ينفّر صيدها، ولا يعضد عضاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ولا يختلى خلاها**» فقال العباس وكان شيخاً مجرباً: إلا الإذخر [1] يا رسول الله؛ فإنه لا بد منه للقبر وظهور البيوت. فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساعة، ثم قال: «**إلا الإذخر؛ فإنه حلال**» [2].

فرمز السلام في الوجود ومعقله هو مكة والبيت الحرام حيث يأمن الطير فلا يصاد، والحشيش فلا يقطع، والشوك فلا يقلع. بَلْهَ الإنسان إنه مركز السلام والأمن في الوجود [3].

سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة:

وخلال إقامته في مكة المكرمة بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالد بن الوليد على رأس سرية كبيرة من المهاجرين والأنصار ورجال من بعض القبائل العربية المسلمة كسليم، وبني مدلج بن مرة [4] بلغ عددهم ثلاثمائة وخمسين رجلا فيهم عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر إلى بني جذيمة [5]، وذلك في شوال سنة ثمان من الهجرة، داعيا لهم إلى الإسلام ولإخضاع قبائل الأعراب الحليفة لقريش، والتي كانت تكوِّن كتلة الأحابيش التي شاركت ضمن الجيوش القرشية التي خاضت بدرا وأحدا والخندق ضد المسلمين، وذلك إكمالا لإحكام سيطرة

---

(١) الإذخر: حشيش طيب الريح، والجليل الثّمام وهو نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت. وقيل هو الثّمام إذا عظم وجلّ. لسان العرب: مادة (ذخر، جلّ).

(٢) المغازي، للواقدي، ٢ / ٨٣٥، والسيرة النبوية، لابن هشام، ٢ / ١٦١، وتاريخ الطبري، ٢ / ٤١٢.

(٣) د. منير محمد الغضبان، عندما يحكم الإسلام.. وعندما تحكم الجاهلية، مجلة البيان، العدد ٥٨.

(٤) ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٢٩).

(٥) وكانوا يقيمون في يلملم، قال ابن سعد إنهم بأسفل مكة على ليلة منها ناحية يلملم (الطبقات ٢/ ١٤٧)، وذكر أن «يلملم» جبل من الطائف على ليلتين أو ثلاث، وقيل هو واد، ويمكن الجمع بينهما فيكون جبل يشرف على واد، انظر ياقوت - معجم البلدان ٨/ ٥١٤. وبلادهم تبعد ثمانين كيلو إلى الجنوب من مكة.

المسلمين على المنطقة ونشر الدعوة فيها، وفتح الطريق أمامهم إلى الطائف ثاني أكبر معاقل الوثنية في الجزيرة العربية آنذاك، والتي كانت تمثل حاجزا أمام نشر الدعوة الإسلامية فيها[١].

تحركت السرية نحو هدفها، ثم إن بني جذيمة لما سمعوا بخبر السرية استعدوا للقتال ولبسوا السلاح، وعلى الغميصاء[٢] تقابل الجيشان، فدعاهم خالد إلى الإسلام "فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا"[٣].

ونظرًا لما هذه الكلمة من ماضٍ سيء في تاريخ الإسلام، حيث كانت تطلق في مقام الذم للمسلمين الأوائل بمكةَ، والاستهزاء بهم من قِبَلِ المشركين، ونظرا لدقة الموقف وحراجته والذي يتطلب سرعة الخاطر في إعطاء القرار الحاسم من أي قائد يحرص على نجاح مهمته، فقد تأوَّل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان يعرف الكلمة وظروف استعمالها"[٤]، كلمتهم تلك على أنها استهزاء وسخرية بالمسلمين "فجعل يقتل منهم ويأسر"[٥] ثم إنه أمر بعد فترة بقتل الأسرى باعتبار أنهم كانوا مستهزئين بالإسلام، فرأى أنه لا بدَّ وأن يثخن فيهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم من الأعراب.

ولكن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر، وبعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٦]، لم ينقادوا لأمر خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وخالفوه في اجتهاده، ورأوا أن بني جذيمة قد "عبروا عن إسلامهم بما يعرفون"[٧]، وكان أكثرهم معارضة له عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حيث قال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره"[٨].

---

(١) البخاري، الصحيح ٥/ ١٣١، ابن كثير، التفسير ٤/ ٣٠٦.

(٢) الغميصاء: مكان أسفل مكة على ليلة ناحية بلملم. انظر ابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٧)، والبكري، معجم (٣/ ١٠٠٠)، وذكر البلادي أنه لا يعرف موضعا قريبا من مكة يعرف بهذا الاسم، وأنه ربما تغيَّر اسم المكان مع الزمن. البلادي، معالم مكة (٢٠٥).

(٣) ابن حجر، فتح، ٨/ ٥٧.

(٤) أكرم العمري، المجتمع المدني، ص١٩٤.

(٥) ابن حجر، فتح (٨/ ٥٧، ١٣/ ١٨٢).

(٦) ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٣٠ - ٤٣١)، والواقدي، مغازي (٣/ ٨٨٠ - ٨٨١).

(٧) البخاري، الصحيح ٥/ ١٣١، ابن كثير، التفسير ٤/ ٣٠٦. أكرم العمري، المجتمع المدني، ص١٩٤، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٤٩.

(٨) ابن حجر، فتح (٨/ ٥٧، ١٣/ ١٨١).

ويذكر الواقدي أن بني سليم قتلوا كل من كان في أيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم، فكان عدد قتلى بني جذيمة قريبا من ثلاثين رجلا[1]، منهم رجل غير جذيمي ساقته منيته وأودى به عشقه لامرأة جذيمية إلى مصيره المحتوم[2].

وعند رجوع السرية من مهمتها رفع المعارضون لخالد تقريرا مفصلا بما حدث للقائد الأعلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذي عبَّر عن إنكاره لفعل خالد بقوله: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**». قالها مرتين[3]. كما أنكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خالد ما فعله من شتم عبد الرحمن بن عوف وقال: «**لا تسبّوا أحدا من أصحابي، فإنّ أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا، ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه**»[4].

وروي ابن إسحاق أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمال فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال وزادهم فوق ذلك إحسانا إليهم وتطييبا لنفوسهم[5][6].

وقد ذهب البعض إلى إدانة خالد بن الوليد في فعله هذا فأخذوا يسوقون الروايات الضعيفة المُشْعِرةِ بإدانة خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنه فعل ذلك إدراكا لثأر قديم مع بني جذيمة[7].

والحقيقة أن كل هذه الروايات ضعيفة لا يحتج بها، فالواقدي متروك، وابن

---

(١) الواقدي، مغازي (٣/ ٨٨٤).

(٢) الطبراني، معجم (١١/ ٣٧٠)، والبيهقي، دلائل (٥/ ١١٧ - ١١٨). وجاء في رواية فقال الرجل: إني لست منهم، إني عشقت امرأة منهم، فدعوني انظر إليها نظرة - قال فيه -: فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت. فذكروا ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "أما كان فيكم رجل رحيم. انظر: ابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٩)، ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٣٣)، الطبري، تاريخ (٣/ ٦٨).

(٣) ابن حجر، فتح (٨/ ٥٧)، القسطلاني، إرشاد الساري (٦/ ٤١٧).

(٤) مسلم - الصحيح ٤/ ١٩٦٧، (حديث ٢٥٤١).

(٥) ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٣٠).

(٦) ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٢٨ - ٤٣٣)، والواقدي، مغازي (٣/ ٨٧٥ - ٨٨٤)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٤٧ - ١٤٩)، والبيهقي، دلائل (٥/ ١١٣ - ١١٨)، ابن حجر، فتح (٦/ ٢٧٤، ٨/ ٥٧، ١٣/ ١٨١)، والقسطلاني، إرشاد (٦/ ٤١٦ - ٤١٧)، وأخرجه الإمام أحمد. انظر البنا، الفتح الرباني (٢١/ ١٦٧).

(٧) ابن هشام، سيرة (٤/ ٤٣١)، والواقدي، مغازي (٣/ ٨٧٦ - ٨٨٢).

إسحاق ساقها بلا سند. والغريب أن الواقدي بعد ما يسوق عدة روايات تدين لخالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يختمها برواية حول الحادثة كلها تذكر أن خالدا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما قتل بني جذيمة إلاّ بعد أن امتنعوا أشدّ الامتناع وقاتلوا وتلبسوا السلاح، وأنه انتظر بهم صلاة العصر والمغرب والعشاء، ولا يسمع أذانا ثم حمل عليهم فادَّعوا بعدُ الإسلام[1].

فهناك شخصية خالد قائد الجيش وما يتطلبه منه الموقف من حزم وسرعة بديهة وتصرُّف عاجل، وهناك على ما أعتقد قلة خبرته الفقهية الضرورية لإصدار الأحكام الاجتهادية قياسا مع الصحابة الذين أنكروا عليه، كعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لسابقتهم في الإسلام، وحداثة عهده به[2].

وهناك شخصية أفراد القبيلة وماضيهم المليء بالغدر والفتك[3]، والذي يعرفه خالد جيدا.

وهناك الأهم، وهو تصرفهم أثناء الحادثة، قوم مدجَّجون بالسلاح، مستعدون للقتال، وفجأة عند ما ظهر عليهم المسلمون قالوا: صبأنا صبأنا. وكانت هذه اللفظة متداولة في مكة، وتطلق على كل من أسلم حديثا على سبيل الذم والاحتقار، فكان واجب القيادة يحتم على خالد سرعة الحسم، فربَّما أنه رأى في تقديره الشخصي وما أدَّى إليه اجتهاده أنهم لو كانوا قد أسلموا لما لبسوا السلاح، واستعدوا للقتال وهم يعرفون أن المسلمين قريبون منهم ويسمعون أخبارهم.

وما خبر فتح مكة بالخبر الذي يخفى، وربما أنه اعتقد أنهم لو أسلموا لكانوا عرفوا النطق بالشهادتين، وهي الوثيقة الوحيدة التي تفرق بين المسلم والكافر أو ربما أنه ظن أنهم قالوا كلمتهم تلك احترازا وخوفا من السيف[4].

وقال الخطابي: "وقد يحتمل أن يكون خالد إنما لم يكفَّ عن قتالهم بهذا القول

---

(١) الواقدي، مغازي (٣/ ٨٨٣).

(٢) لم يسلم خالد رضي الله عنه كما تذكر روايات أهل المغازي إلاّ قبيل فتح مكة. ابن هشام، سيرة (٣/ ٢٧٧)، والواقدي، مغازي (٢/ ٧٤٦ - ٧٤٩). والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتفاوتون في الفقه، ويدل على ذلك حديث: "ربَّ مبلغٍ أفقه من سامع".

(٣) ورد في بعض روايات أهل المغازي أنهم كانوا من أشرِّ حيٍّ في الجاهلية وكانوا يسمّون "لعقة الدم". انظر الحلبي، إنسان (٣/ ٢١٠).

(٤) وقد حدث مثل ذلك لأسامة بن زيد في سرية الحُرقات من جهينة، حينما قتل رجلا منهم قال: لا إله إلا الله بعد أن رفع عليه السيف. انظر ابن حجر، فتح (٧/ ٥١٧).

من قِبَلِ أنه ظنَّ أنهم عدلوا عن اسم الإسلام إليه أنفة من الاستسلام والانقياد فلم ير ذلك القول منهم إقرارا منهم بالدين".

ويعتقد أنه قد جرى اجتهاده بالنسبة للأسرى قياسا على أسرى بدر، وما جرى حولهم من عتاب الله عز وجل لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فربما أنه ظنَّ أنهم أسرى كفّار، لا بدَّ من أن يثخن فيهم حتى يكونوا عبرة لغيرهم من المشركين.

فكل هذه الاحتمالات وما يصاحبها من أمور دقيقة وملابسات شائكة، تجعل أي قائد في مثل موقف خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في موضع شكٍّ في مثل من هم في موقف بني جذيمة، فجرى اجتهاده الذي لامه عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن المسألة تتعلق بأرواح أناس بَدَرَ منهم شبهة تدرأ القتل عنهم "وإنما نقم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خالد موضع العجلة، وترك التثبت في أمرهم أن يتبين المراد من قولهم: صبأنا"[1].

وأخيرا لو كان الأمير سيئًا للدرجة التي وردت في بعض الروايات التي لا تصلح للاحتجاج بها لضعفها الشديد ونكارتها، والتي استغلها بعض الحاقدين على الإسلام ورجالاته الأفذاذ، مثل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سيف الله المسلول، الذي دوّخ الكفرة والمشركين بانتصاراته الباهرة - لحدث بعد هذه الحادثة أمران مهمان جدا لا بدّ من حدوثهما في مثل هذه المسائل الخطيرة وهما:

أولا: نزول آيات قرآنية تشجب تصرف خالد وتعاتبه عليه كما حدث في سرية أضم وقصة محلم بن جثامة مع عامر بن الأضبط[2].

ثانيًا: محاسبة خالد ومعاقبته على فعلته أو على أقل تقدير عزله من قيادة الجيش والسرايا بعد تلك الحادثة، وذلك أمر لم يحدث مطلقا.

ثم إن خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد ائتمنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دماء المسلمين وأعراضهم، ومن بعده صاحبُه وخليفته أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلا يمكن أن يقتل أحدًا من الناس دون حقٍّ إلاَّ متأولاً. قالها أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما بلغه قتل خالد لمالك بن نويرة[3].

* * * * *

(١) الخطابي، أعلام (٣/ ١٧٦٥).

(٢) ابن حجر، فتح (٨/ ٢٥٨ - ٢٥٩).

(٣) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٥٤.